

لمحة عن شعر سعيد حيتانة

سُوف عبید

يُمثل الأدب بمفهومه الواسع تعبيراً عن الإرهاصات المختلفة التي يزخر بها المجتمع في كل عصر ومصر ويبرز ذلك التعبير بصفة أوضح في مجال الشعر وقد سجّل ابنُ خلدون التأثير الاجتماعيّ على اللغة و فنون الأدب وذلك في - المُقدّمة - ففي الفصل الخاص بعلوم اللسان رأى أنّ اللغة تتأثر بما جاوره من ذلك أن عربية قريش ليست ذاتها عربية مُضر ولاحظ كذلك أن لغة (أي لهجة) أهل المشرق تختلف بعض الشيء عن لغة أهل المغرب وكذلك لغة أهل المغرب تختلف عن أهل الأندلس لأنّ أولئك - كما أورد - خالطهم الفُرس والعجم وهؤلاء خالطهم البربر والإفرنج

و لابن خلدون فصل آخر على قدر كبير من الأهميّة ألا وهو فصل - في تفسير الدّوق - الذي يحصل عند حذق أساليب العرب بالتعلم والممارسة والمدارسة والإعتياد والتكرار بدون النظر إلى أصل المرء كما حصل لدى سيبويه والزمخشري اللذين صارا من أئمة العربية رغم عجمتهما وعندما يستعرض تعريف الشعر من لدن العروضيين في قولهم (إنّ الكلام الموزون المقفّى) فإنه لا يطمئن إلى هذا التعريف بل يدعو إلى ضرورة النظر في الشعر من جهات أخرى مثل البلاغة والوزن والاستعارة والأوصاف وغيرها و يخلص إلى تعريف أوسع و أشمل يتمثل في قوله : - إن الشعر هو الكلام البليغ المبنيّ على الاستعارة والأوصاف المفصّل بأجزاء متّفقة في الوزن والرّوي

إذن قد تجاوز ابنُ خلدون مقولة (الموزون المقفّى) وإضافة إلى هذا الرأي الجريء و المخالف المتحدّي للرأي السائد في الشعر وإقترح تعريفاً بديلاً شاملاً يؤكد فيه على الأسلوب والصّيغة من دون أن يهمل أهمية المبنى و المعنى ثم يطبق نظريته تلك على أعلام الشعر العربي فيخلص إلى أن الكثير منه ليس إلا نظماً ولم يستثن حتى المتنبي والمعري بل نراه يضيف رأياً غريباً آخر يتمثل في نظريته إلى أن - كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم ويضرب على ذلك مثال حسّان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريبر والفرزدق ويفسّر ذلك - بأنّ هؤلاء قد سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما -

ويزيد هذا الرّأي الجريء صراحةً وبيانا فيقول بلا لبس : - وإرتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية -

بينما السائد لدى اللغويين والمفسرين والأدباء عموماً أن كلام الجاهليين يُعتبر المرجع في اللغة العربية و أساسها بل كثيراً ما يكون الفيصل عند شارحي القرآن والسنة

يتوضح لنا حينئذ أن رأي ابن خلدون في الشعر واللغة لم يُسلم فيهما بالتقليد وإنما نظر إليهما نظرة نقدية مُخالفة بل معاكسة للسائد و المتفق عليها وتبدو جراته النقدية ونظرته الإستشراقية من ناحية أخرى عندما دوّن بعض

النماذج من قصائد كانت رائجة في عصره من المشرق والمغرب فسجّل شعر الهلايين ومعاصريهم وكذلك فضّل القول في شعر الموشّحات الأندلسية تفصيلاً ضمن مقولاته في اللغة تلك التي تتأثر بوضوح بحركة الحياة في المجتمع و تطوراته المختلفة.

هنا تبرز مواقف ابن خلدون النقدية الثاقبة في اللغة والشعر تلك التي تمتاز بكثير من الجرأة على ما ترسخ من النظريات القديمة لذلك فإن بعض فصول المقدمة تعتبر أحد المداخل الأساسية كي نعيد الاعتبار للأدب الشعبي لننظر إليه ضمن مدوّنة الأدب العربي الشاملة أيضاً سواء في هذه البلاد أو تلك أو في هذا العصر أو ذاك وتُزيح عنه ذلك الغبن التاريخي بما يعنيه من إهمال وإستنقاص وفي هذا السياق تنتزّل هذه المقاربة للشاعر سعيد حيتانة الذي كان أحد الذين تأثرت بهم في مسيرة الشعرية حيث كان عمّي من المعجبين به فقد كنت كثيراً ما أصاحبه نحو حفلات الأعراس التي كان الشاعر سعيد حيتانة يفتتحها بصوته الجمهوري الصادح وهو يصول ويجول وسط المحفل فيشدّ إليه الانتباه ولا يحجب صوته إلا نقرات الطبول الخفيفة التي كأنها قد إستخفها الطرب هي أيضاً

لقد مثل الشاعر سعيد حيتانة طورا مُمهما من تاريخ الشعر الشعبي في تونس حيث واكبت قصائده أغلب التحولات الإجتماعية والسياسية تلك التحولات التي لا نجد لها بصفة واضحة أو غائبة أحيانا في نصوص الأدب الفصيح لكننا نرى ان الشعر الشعبي قد عبّر عنها بصدق وشجاعة مثل قصيدة الشاعر علي بن عبد الله القصري - الذي أورده الباحث علي سعيدان ضمن مجموعة من القصائد في أخبار المقاومة العنيفة للاحتلال الفرنسي وهي تهنّاءة دقيقة وهلّة الأمل في الأوضاع الاجتماعية والسياسية بما فيها من فقر وظلم إنها حالة متدهورة كانت جاثمة على البلاد والعباد في أواخر القرن التاسع عشر بتونس زاداها الاحتلال الفرنسي نكبة وتُورد منها قوله خاصة

الباي حكمه جاز * من سُورنا وطى نظر العين
سيب علينا ناز * سامور يشعل لا بقاش يهين
اعطى الوطن للكفار * الاسلام تحت الذل مغبونين
كبس كبس بالزيار * نتقلوع الجمر مقلين
احنا قوتنا مرار * الواحد غرق لرقبته بالدين
احنا سيدنا ضر الاسلام * وكتر علينا المطالب
فينا حقت روس الاقلام * كل يوم تسمع غرايب
ضاموه عباد الاسلام * بالكفر والدين حارب
كيف من رحل كيف من قام * اتفك رزقنا راح طايب
دعوات من ناس قدام * والاخرة سُومة عقايب

بلى... قد كان الشعر الشعبي على مدى تلك العهود المتوالية صدى للحركة الوطنية في مختلف أطوارها مسجلا الوقائع والملابسات والتطورات المختلفة

التي عرفتها البلاد فقد دون لنا الشعر الشعري الشعبي أغلب الأحداث الهامة من بينها موقعة الجلاز سنة 1911 ومن بين تلك القصائد القصيدة التي تتغنى بالشهداء الذين أعدمتهم السلطات الفرنسية بالمقصلة التي جلبتها من فرنسا لترهيب الشعب التونسي ومن بين أولئك الشهداء الشاذلي القطاري ومحمد المنوبي الجرجار الذي قيل إنه كتب قصيدة على جدار زنزانته يصف فيها التعذيب الذي لقيه على يد جلاديه وصارت تلك القصيدة أغنية شعبية شهيرة مطلعها

برّا وايجا ما تردّ أخبار * ع الجرجار * يا عالم لسرار صبري لله

ومن تلك الأغاني الشعبية الذائعة الصيت أغنية الدغباي

الخمسة اللّي لحقوا بالجربة * وملك الموت يراجي

لحقوا مولى العركة المرة * المشهور الدغباي

في هذا السياق التاريخي نشأ جيل من الشعراء الشعبيين بعد الحرب العالمية الأولى فاتحا أعينه على الاستعمار الفرنسي الذي سيطر على البلاد فعبر أغلبهم عن أفكار حركة الإصلاح الاجتماعي الشامل وإنخرطوا إلى جانب ذلك في نشاط الحركة الوطنية في جميع المدن والأرياف والقرى ومنهم الشاعر سعيد حيتانة فكانوا لسان حالها ووسائل إعلامها في عهد وفي مناطق لا وسائل سمعية بصرية سائدة بالإضافة إلى انتشار الأمية وسيادة الأفكار والمقولات والممارسات المختلفة التي لا تسعد على التحرر والإنعاش بل على الجهل والتخلف والاستعمار فكان دور الشاعر الشعبي في كثير من الأحيان وفي كثير من المناطق دور المثقف الملتزم الطلائعي الذي يؤثر بوضوح في محيطه من القصائد التي تندرج ضمن الإصلاح الاجتماعي قصيدة قالها سنة 1967 بملثقى الشعراء الشعبيين بمدينة باجة ويقول فيها

ها الشعب لو كان الكلام يضوقة * بيدل مناهج فكرة وخلوقة

ها الشعب يا فهامة * إنسدت أخلاقه ومنطقة ونظامه

ويا لندرا كيفاش عقب أيامه * والدهر لازم يختله ويعوقه

وقد صوّر فيها مع النقد بعض المظاهر الجديدة التي عرفها المجتمع التونسي خاصة بعد الحصول على الاستقلال وما طرأ عليه من تحولات جذرية على مستوى العلاقات داخل العائلة وعلى مستوى القرية والمدينة وما شهدته من ظهور سيادة الفئات الجديدة على حساب تراجع سلطات الفئات القديمة وكذلك على مستوى العادات والتقاليد والسلوك وحتى على مستوى اللباس والمظهر وذلك بسبب تأثير وسائل الإعلام الداخلية والخارجية ونرى الشاعر في آخر القصيدة يوصي بالتمعن في التجارب الماضية لأخذ العبرة مع ضرورة التحلي بالصبر وترك الزمن يفعل فعله حيث يقول

ها الشعب ليه وصاية * كل شي يوفى تُقعد ليه حكاية

وكثر النجارب يوصلك للغاية * وكل نفس ديم ناقصة محقوقة

وكل شي عندَ بدِّي فيه نهاية * والصبر باهي لو قدرت إنذوقه

ويختتم الشاعر سعيد حيتانة قصيدته بالإمضاء فيذكر إسمه ولقبه علي طريقة السُّبَّة الشعرية التقليدية في آخر القصائد الشعبية فيقول كأنه يبصم أو يطبع قائلاً بأنه الشاعر الفحل الذي لا يكاد أحد من الشعراء يضاويه في الشاعرية والإبداع بما له من ابتكارات لم يُسبق إليها حيث يعلن مفتخراً

أنا سعيد حيتانة قليل عبارة * جايب معاني مصكرة مغلوفة

وبالإضافة إلى ثراء المدونة الشعرية للشاعر سعيد حيتانة بالمواضيع الوطنية والاجتماعية على مدى سنوات متوالية مما يجعل من تلك القصائد مراجع تاريخية واجتماعية مُهمة , فإن تلك المدونة ثرية أيضاً بالقصائد الذاتية التي عبّر فيها عما كان قد إختلج في وجدانه من شجون ومن بين تلك القصائد الوجدانية مقطوعة قالها سنة 1969 بمناسبة رحيل زوجته حيث قال

والله الموت هزهالي * الموت هزت إلعزيز الغالي

الموت هزت راحتي من بالي * خلاتني بوجيعتي نتلوّي

رافع يدِّي للسمما للعالي * اجعل شرابي الصبر بيه نتروّي

والمقطوعة على إيجازها فيها إشارات خفية على أن المقصود هو زوجته بالرغم أن الكلام ورد على صيغة المؤنث وفي الأبيات تضمين معني قوله تعالى - **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** -

ومن روائع الشاعر سعيد حيتانة قصيدة أعتبرها من أهم قصائده لأنها نسيجٌ وحدها من حيث طرافة الموضوع وجرأته ومواكبته للواقع الاجتماعي من ناحية ومن ناحية أخرى لأنها تعبير عن حالة وجدانية حميمة جدا ليس من التصريح بها إلا وهي تلك الخيبة التي يجدها بعض الآباء والأمهات من أبنائهم عندما يبلغون سنا متقدمة ويكونون في أمس الحاجة إلى عطفهم ورفقتهم ولعل ذلك راجع إلى عوامل عديدة كالنزوح والهجرة والتطور الاجتماعي والتشتت العائلي وغلبة الشعور بالأنانية والفردانية وجميعها لا تبرر ضرورة الإحسان إلى الوالدين حيث يقول الشاعر في لوعة وأسى

لولاد فرّوا كلهم خلونا * وعزّوا عليهم اولادهم وانسونا

لاولاد تتمناهم * يشوفوا التالي ويعرفوا مبداهم

آش كون جابهم وآشكون من ربّاهم * واشكون من عضّ الحجر بسنونا

واليوم جملّ تلفو باباهم * بلا مُوت على قيد الحياة دفنونا

والقصيدة عبارة عن الشكوى مع العتاب بالإضافة إلى النقد مع الرثاء الذاتي وفي صور موحية وإشارات بليغة على هذا النحو:

بلا موت قبلوا عزانا * بلا موت داروا فرقنا واعشاننا

وانا مثيلي راقد الجبانا * حتى تجي مناسبة يزورونا

فهي تصور بوضوح تدهور العلاقات داخل الأسرة بل تناولت أشد وأوثق العلاقات على الإطلاق ألا وهي علاقة الوالدين بالأبناء حيث كما وصف الشاعر قد آلت إلى مرتبة متدنية بينها وبين القطيعة مسافة لا تكاد تذكر كي لا توصف بالجحود على الأقل وقد جعل الشاعر مجرى الكلام في صيغة الجمع متكلمًا ومخاطبًا وغائبًا مما يجعل معاني القصيدة ومناسبتها شاملة عامة بالرغم من أن المعاناة الشخصية واضحة فيها وذلك هو الشعر البديع والفن الأصيل حينما ينطلق من الخاص كي يعبر عن العام وعندما ينبثق من زمن مضى وانقضى ليظل نابضًا بالإحساس والمعاناة على الدوام

وخلاصة القول فإننا نعتبر الشاعر سعيد حيتانة أحد فحول الشعراء التونسيين على مدى القرن العشرين بشهادة الكثير من الشعراء الذين عاصروه وبالتالي فهو الوريث للشاعر أحمد بن موسى الغمراسني الذي عاصر الدولة الحسينية في القرن التاسع عشر لذلك نرجو أن تحظى أشعاره بالجمع والنشر والدرس كي لا يطولها الإهمال والنسيان جاعلين من ذكره مناسبة لتسليط الأضواء على الأدب الشعبي كي نبوئه المنزلة المرموقة التي هو جدير بها ضمن نظرة جديدة شاملة للادب بجميع أصنافه وأنواعه وفنونه وعهوده وما ذلك بعزير على أولي العزم متى تضافرت الجهود وصدقن النوايا .